جمالية الصورة التشبيهية في مراثي الرضي

الدكتورة : نرجس الأنصاري

الدكتور: علي رضا نظري

جمالية الصورة التشبيهية في مراثي الشريف الرضي

الدكتورة نرجس الأنصاري*
الدكتور عليرضا نظرى**

الملخص:

لقد لفتت الصورة انتباه النقاد والأدباء وعلماء البلاغة منذ القديم وليس ذلك بغريب؛ لأنّ الصورة تقوم بدور فعّال في انتقال تجارب الشاعر ومشاعره إلى الآخرين والأساليب المختلفة من التصوير تجعل عمل الشاعر الفنّي أشد وضوحاً وأكثر دقّة وهي ظاهرة نواجهها في كثير من قصائد الرضي الرثائية الذي استعان بأنواع الصورة ليرسم لوحة ممّا يريد إلقائه على القاريء وليزيد عمله الأدبي تأثيراً عليه.

هذا البحث تناول دراسة الصورة التشبيهية في مراثي الرضي التي لها دور أساسي بين أنواع صوره الشعرية معتمداً على منهج وصفي -تحليلي يتمثل في القيام بدراسة مضمون الصورة نظرياً، ثمّ البحث عن الموضوع الرئيسي الذي يشتمل على الابيات التي استخدم فيها الشاعر أنواع التشبيه إضافة الى تناسب صوره مع الغرض الذي يريد أن ينقله إلى المخاطب فهي كثيراً ما تصوّر حالة المتوفّى والمصابين، نفسانية الشاعر، والموت ثمّ الأيام ومصائبه. ومن هذا المنظار يعالج البحث مضامين الصورة وبنيتها والشكلية أيضاً.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث هي أنّ استخدام حواسّ الصوت واللون يشكّل جانباً بارزاً عند رسم الصورة التشبيهية؛ كما أنّ المادّي المحسوس يعدّ العنصر الهامّ في التشبيه لدى الرضي وقد استمدّ اكثر صوره التشبيهية من مظاهر الطبيعة والواقع المحسوس.

الكلمات المفتاحية: الصورة الشعرية، التشبيه، الرثاء، الشريف الرضي

---

* - أستاذةمساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الإمام الخميني الدولية بقزوين، إيران.nansari@ikiu.ac.ir (الكاتبة المسؤولة)

** - أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الإمام الخميني الدولية بقزوين، إيران.

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/١٠/٢٠هـ.ش= ٢٠١٢/٠١/١٠م تاريخ القبول: ١٣٩٢/١٢/٠٦ هـ.ش= ٢٠١٤/٠٢/٢٥م

المقدمة:

الصورة هي الإطار الذي يصبّ الشاعر ما في نفسه تجاه الواقع في قالبه لإلقائه على المتلقي وتحريك مشاعره، فليست هناك قصيدة من قصائد العرب، الا وهى مملوءة بأنواع من الصور الشعرية، ذلك لأنّ «اللغة العربية لغة تصويرية.»[١]وليست الصورة زينة عارضت الكلام، بل «هى جوهر فن الشعر»[٢]وعنصر من عناصره بل أهم عناصر الشعر، فهي تتحوّل إلى مجرد حلية زائفة عند الإغراق فيها تفسد الكلام وتدفعه إلى التصنّع والتكّلف الذي لا طائل تحته وهي طريق في التعبير وأداة في يد الأديب يستمسك بها للكشف عن خلجات نفسه وتجاربه الشعورية والصورة تعقد علاقة وثيقة بين أجزاء الكلام حتّي تظهر متماسكة لا تنافر بينها فعندما يواجه القارئ العمل الأدبي، يجدها كشريط سينمائي يمرّ أمام عينيه ينبعث من أعماق نفس الشاعر ويتحدّث عن عواطفه وأفكاره وبما أنّ المتلقّي يجد نفسه في مشاركة وجدانيّة مع الشاعر، فهو يتأثر بكلامه فلا يحسّ التباين بين أجزائها، بل يراها حديث نفسه وماجرّبه في حياته والتصوير أيضاً يساعد المخاطب لكى يجسّم ما يرسمه الشاعر من الوقائع والأحاسيس كما هي. والتشبيه يقوم بالدور الأكبر في بناء الصورة الشعرية وهو «في إتمام كمال اللوحة الفنية»[٣]ويجعله عبد الحميد الهّرامة[٤]عماد التصوير البياني، فهو بين الأنواع البلاغية أكثر أهمية بالنسبة للناقد والبلاغي القديم و«الحديث عنه بمثابة مقدمة ضرورية لا يمكن تأمل الاستعارة والمجاز دونها» [٥]وهو من« أقدم صور البيان ووسائل الخيال وأقربها إلى الفهم والأذهان، ولذلك اعتبره بعضهم من الفنون التي تمثل المراحل الأولى من التصوير الأدبى والربط بين الأشياء»[٦]

---

[١]- عبدالسلام أحمدالراغب، **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**، ص ٥٢.

[٢]- صلاح فضل، **نظرية البنائية في النقد الادبي**، ص ٢٣٨.

[٣]- علي إبراهيم أبوزيد، **الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي**،ص ٢٧٠.

[٤]- عبد الحميد عبدالله الهرّامة، **القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري**، ج ٢، ص ٣٧٩.

[٥]- جابرعصفور، **الصورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي**، ص ٢٠٧.

[٦]- أحمد مطلوب، **فنون بلاغية**، ص ٢١٧.

ونحن عندما نبحث عن التشبيه نقوم بدراسة دوره في كيان الصورة وما يؤثر فيه ويزيد من تأثيره ووضوحه وجماله «لأنّ التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً»[١]إذن ليس التشبيه زينة عارضت الكلام وحسنت الصورة، بل إنّه «جزء جوهري من الصورة الشعرية»[٢]وإنّه يقرب المعنى إلى الذهن عندما يجسده ويجسمه كموجود حي. أما الصلة بين التشبيه والصورة فهي وثيقة جداً، بحيث لا جفوة بينهما،كما اعتقد عزالدين إسماعيل[٣] وهو قد يصل إلى درجة من الخصب والإمتلاء والعمق إلى جانب الإصالة والإبتداع بحيث تمثل «الصورة» وتؤدي دورها. غير أنّ الصورة وإن تمثلت أحياناً في التشبيه الخصب ما تزال لها وسائل أخرى تتحقق بها ومن خلالها.

وملخص الكلام إنّ التشبيه ليس هو الصورة، بل إنه جزء هام من الصورة يلعب دوراً عظيماً في بنائها. وله بالغ الأثر في تفهيم المعنى للمخاطب وإيصال الرسالة إليه. وبناء على هذه المكانة التي تحتلّها الصورة ومنها التشبيهية في الكشف عن جمالية المعنى، فيتناول البحث الذي بين أيديكم أشعار الرضي الرثائية، ليقوم بدراسة هذا العنصر البلاغي الهامّ والدور الذي يلعبها في الشعر الاّ أنه لايكتفي بتحديد الصور التشبيهية فحسب؛ بل يتجاوز ذلك إلى تحليل الصور ودورها في إلقاء المعاني كما يبحث عن علاقة الصور وعناصرها بالعاطفة والمضمون.

هناك العديد من البحوث الجامعية والمقالات العلمية التي عالجت شعر الشريف الرضي من حيث المضمون، منها: «الوجدانيات في أشعار الشريف الرضي» لمحمود آبدانان؛ «جستارى بر مرثيه هاى شريف رضى ومحتشم كاشانى» لعلي رضا محمدرضايي؛«دراسة مقارنة بين مراثي الإمام الحسين (ع) في ديواني محتشم كاشاني والشريف الرضي» ليوسف لاطف، «مكانة الشريف الرضي بين شعراء المديح» لإسماعيل غانمي. رسائل جامعية نحو: نقد وبررسى ديوان سيد رضى؛ مضامين شيعي در شعر شريف رضي وشريف مرتضى، لمحسن شبستاني والمقالة التي نشرتها أخيراً مجلة إضاءات نقدية عنوانها «الرثاء في شعر الشريف الرضي»كتبها محمد إبراهيم خليفة الشوشتري... وقد تناولت بعض البحوث

[١] - ابوهلال العسكري، **الصناعتين**، ص ٢٤٩.

[٢] - صبحي البستاني، **الصورة الشعرية في الكتابة الفنيّة**، ص ١٢٢.

[٣] - عزالدين إسماعيل، **الشعر العربي المعاصر**،ص ١٤٣.

جوانب أسلوبية ولغوية في شعره، ومن تلك البحوث: «علائم ورموز تصوف در شعر شريف رضي» لمهدى خرمي؛ «مقدمات تغزلى در شعر شريف رضي»، لحسن مجيدي، إلاّ أن الصورة ودراستها لم تأت في بحث مستقلّ، وقد تناولت الكتابة موضوع الاستعارة في مقالة تحت عنوان «تصاوير استعاري در مراثي شريف رضي» فهي تكشف عن جمالية الصورة الاستعارية وعلاقتها بالمضامين الشعرية عند شاعرنا الرضي وهذه المقالة تعالج الصورة التشبيهية بطريقة لم تسلكها المقالات السابقة.

يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

-ما هي أهم المضامين التي يتناولها الرضي في إطار صوره التشبيهية؟

- ما هي العناصر البارزة التي تستخدم في صور الشاعر التشبيهية؟

- ما هي الصور التي تكون أكثر استخداماً بين أنواع الصور التشبيهة؟

- ما هي العلاقة بين الصورة والعاطفة واللفظ في صور الشاعر الرثائية؟

- ما هي أهمّ المصادر التي استلهم الشاعر منها صوره التشبيهية؟

أما بخصوص المنهج المتبع، فقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي - التحليلي، حيث قام باستقراء الأبيات التي تحمل الصور التشبيهية ومن ثمّ تحليلها الفنّي ودراستها.

دور التشبيه في إبراز المعنى لدى الرضي:

الشريف الرضي[١] شاعر يحظى بإحساس مرهف ومشاعر لطيفة، وهو يتأثر بحادث الموت وفقدان أهله وأقربائه أو أصدقائه، أو كبار الرجال من أمته تأثيراً عميقاً، وذلك مما أدّى إلى كثرة قصائده

[١] - سيّد من السادات الهاشميين، تألق نجمه عام٣٥٩هـ ينتمي إلى أسرة «ذات سيادة في تاريخ العرب والإسلام تحظى بمنزلة هامة في النشاط الفكري بأنماطه الفكرية كافة عند العرب والمسلمين وهي التي أعطت الأشراف منزلة كبيرة في التاريخ العباسي في مجال الفكر والسياسة» (عبداللطيف عمران، **شعر الشريف الرضى**،٣٧). تولّى المناصب السامية والمراكز الرسمية في وقت مبكر، منها إمارة الحج وديوان المظالم نيابة عن أبيه ونقابة الطالبيين (محسن الأمين، **أعيان الشيعة**،٩، ص٢٢٠). وهو دليل على عظمته ومكانته المرموقة وشخصيته الفريدة.كما تفجّرت ينابيع الشعر من قلبه وهو في الخامسة عشرة من عمره و«شعره على كثرته لابس كلّه ثوب الجودة والملاحة وقلّما يتّفق لشاعر مكثر» (المصدر نفسه،٩، ص٢١٧) يدلّ شعره على أنّه تأثر أشدّ التأثر بالمتنبي وقد عدّ شوقي جوامع ثلاثة تجمع

الرثائية أولاً ثمّ جعلها تزخر بشحنة عاطفية عميقة تنبع عن شعوره ونفسه الحسّاسة التي تلتاع من لهب الأحزان والهموم وتتحطم عظامه تحت شدة الأسى عندما تصاب بمصاب عزيز وحبيب، فعندئذ يصبّ كل مشاعره في رثائه ويرسم لوحات جميلة عن نفسه وأفكاره إزاء الموت والأيام وحوادثه ومصائبه التي تنزل على الإنسان، وتهدم كيانه وتفرّق شمله، أو يصّور تصويراً دقيقاً حالات المصابين وأقرباء المتوفّى وأثر المصاب عليهم. وكذلك هو يجسد أفكاره المجرّدة مستعيناً بأنواع الصور الشعرية، ومنها الصورة التشبيهية التي تقوم بدور فعال في التعبير عمّا يريد الشاعر. فقد استخدم أنواع ودرجات مختلفة من الصورة التشبيهية؛ الحسيّة منها والمعنوية، المفردة والمركبة و... ويمزج فيها بين الصورة والعاطفة. ويستعين بقوة خياله في تجميع جزئيات صوره وخلق العلاقة بين الأشياء ليعبّر عن انفعالاته النفسية. وللتشبيه دور أساسي في التصوير العام الذي يريد الرضي أن يرسمه أمام عيني المخاطب في مختلف الموضوعات وقد قمنا بتحليل الأشعار التي استعان فيها الرضي بالتشبيه للحديث عن الشخصيات التي أصيبت بمصابها، حاله المصابين ونفسه، ثمّ تصوير الموت وصورة الأيام ومصائبها.

تصوير المعنوي في صورة المحسوس وبالعكس

يستعين الشريف الرضي بالصورة التشبيهية في شعره ليكون تصويره دقيقاً، ويشكّلها من عناصر حسية في أكثرها ليقرب الصورة إلى ذهن المتلقي فيلمسها بسهولة. فطرفا الصورة إما محسوسين، وإما حسّي ومعنوي. وكثيراً ما نرى أنّ الشاعر يشبّه المعنوي بالمادي المحسوس. وقد يصوّر المحسوس في صورة المعنوي، حين يحلّ الصورة الحسية محل المعنى المجرد وهذا قليل. ومن صور الرضي قوله:

الشريف بالمتنّبي وذلك أن الرضي كان يشكو من الدهر مثلما فعل المتنبي إذ يرغبان في الدولة والخلافة أما الجامع الثاني شعوره بالفتوّة وقوة النفس وكبرياء وثالثها استشعار البادية وروحها احساساً منه بأنه عربي أصيل (شوقي ضيف، **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**،٣٥٣؛ **تاريخ الأدب العربي**،٣٧٣).

له قدرة فائقة وبراعة نادرة في الشعر وهوشاعر مكثر أجاد شعره فلم يترك غرضاً إلا ونظم فيه قصائد عدّة. يشمل ديوانه ٦٨٤قصيدة وقطعة في مختلف الأغراض الشعرية من المدح والغزل والرثاء و...سبق فيها كل معاصريه دون أن يكون له منازع كما يقول عن شعره الباخرزي: «له شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه، وعقد بالنجم نواصيه وإذا نسب انتسب رقّة الهواء إلى نسبيه وفاز بالقدح المعلّى في نصيبه وإذا وصف فكلامه في الأوصاف أحسن من الوصائف والوصّاف وإن مدح تحيرت فيه الأوهام من مادح وممدوح» (علي بن حسن الباخرزي، **دمية القصر**،ج١، ص١٩٢).

وَجْهٌ كَلَمْحِ البَرْقِ غَاضَ وميضُهُ قَلْبٌ كَصَدْرِ العَضْبِ فُلَّ مَضَاؤهُ[١]

فيقترن وجه المرثي في خيال الشاعر بضياء البرق الذي فقد لمعانه عندما سكن في الأرض وغاب عن الأنظار فنقص ضوءها ويري قلبه في الصلابة والقوة كحد السيف القاطع الذي تكسّر وتثلّم رغم قوّته. قوله «غاض وميضه» و«فلّ مضاؤه» يشير إلى الجو الرثائي الحزين الذي يسود الصورة. وقوله يرسم منظر ذهاب الملك من أمام عينيه:

فَاذهَب كَما ذَهَبَ البَدْرُ استَبَدَّ به بِرُغْمِ أعْيُنِناَ، جِلْبَابُ الظلَامِ[٢]

استقى الشاعر عناصر صورته التشبيهية من الطبيعة ورسم لوحة بدر في السماء، أرخي على وجهه ستر الظلام، فغاب عن الأنظار، ثم قارن بين هذه اللوحة ولوحة المرثي الذي مات، فيفصح الرضي بذلك عن حزنه النفسي والظلام الذي يملأ أعماق قلبه إثر هذا الحادث المؤلم. وكذلك قول الرضي في رثاء صديقه وقد أخذ ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة:

فاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الرَّبيعُ وإثْرُهُ بَاقٍ بِكُلّ خَمَائلٍ ونِجَادِ[٣]

فقد شبّه الرضي، هذه المرة المرثي بموسم الربيع، وذلك في ما بقي منه من الأعمال الحسنة والفضائل الإنسانية، فالربيع يهب الطبيعه الجمال والبهاء والنشاط وعندما يذهب، تبقى آثاره جميلة خضراء. والمرثي أيضاً قد ترك للباقين ميراثاً حسناً. وأخرى شبّه المرثي بالفضة في تشبيه مفرد ذو طرفين محسوسين:

رُزِئتُكَ كَالْوذيلَةِ لَمْ تُمَتّعْ بِها، بَعْدَ الوُجُودِ، يَدُ العَدِيمِ[٤]

---

[١] الشريف الرضي، **ديوان**، ج١، ص٧٨.

[٢] المصدر نفسه،ج٢، ص٣٥٣

[٣] المصدر نفسه،ج١، ص٤٢٩

[٤] المصدر نفسه،ج٢، ص٢٦٨

فيرى صديقه كقطعة من الفضّة المجلوة التي توحي بمكانة المرثي وقيمته عند الشاعر والرضي أراد بهذه الصورة التي رسمها للمخاطب أن يكشف عن مكانة صديقه أولاً ثمّ يصوّر حالته عند فقده، فهو كالفقير الذي كان يتمتع سابقاً بهذه الفضّة الثمينة ثمّ فقدها، وذلك يزيد من تحسّره وحزنه على ذلك، لأنّ الفقير يعرف قدر المال، فهو إن لم يتمتع به، لم يتحسّر على فقده كثيراً ولكن الفقد بعد الحصول عليه صعب.

إنّ الشريف الرضي يستعمل أنواع الصورة التشبيهية لغرضه، يشكلها من عناصر مفردة أو مركبة، ومن تشبيهه التمثيلي قوله:

وَمُسَنَّـــدِينَ عَلَى الجُنُوبِ كأَنَّهـــُـــمْ شـــَرْبٌ تَخَاذَلَ بِالطـــُـــلَا أعْضـــــَاؤهُ[١]

يصوّر الشاعر حال قومه الذين ماتوا ورحلوا عن الديار واستقروا في دار بقائهم مستعيناً بالصورة التشبيهية المركبة، فطرف منها صورة جماعة من السكارى الذين شربوا الخمر وأصبحوا جاثمين على الأرض، فاقدين الحركة والنشاط والطرف الآخر صورة قوم الشاعر في قبورهم. وقوله يرثي الإمام الحسين (ع):

كَأَنَّ بِيـــــضَ المَوَاضـــــِي وهيَ تَنـــْهَبُهُ نَـــارٌ تَحَكَّمُ في جِـــسْمٍ مِنَ النُّورِ[٢]

تستحضر مخيلة الشاعر جثمان الإمام الشهيد الذي مالت إليه السيوف القاطعة لتأخذ مهجته قهراً، فتتحوّل السيوف في ظل الصورة التشبيهية ناراً تستبدّ بجسم من النور، وتتصرّف فيه كما تشاء. فاستعان الشاعر بالعناصرالحسية البصرية لإغناء تصويره، واللون الأبيض المستمدّ من النور يهب جسم الإمام إيحاءات الطهر والإشراق والصفاء.

ومما نجد في تشبيهات الرضي أنّه يستعملها مصدرياً وهو ما عدّه إبن الأثير[٣]من محاسن التشبيه، قائلاً:«اعلم أن محاسن التشبيه أن يجيء مصدرياً،... وهو أحسن ما استعمل في باب التشبيه» وذلك كقوله في تصوير حالة المرثي:

طَوَيْتُكَ طَيَّ البُرْدِ لم يُنْـــضَ من بِلىً وقَدْ يُعْمـــــَـــدُ المَطْـــرُورُ وهُوَ صَنِيعُ[١]

---

[١] المصدر نفسه، ج١، ص٨١

[٢] المصدر نفسه، ج١، ص٥١٧

[٣] ضياء الدين إبن الأثير، **المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر**،ج١، ص٣٧٩

أراد الرضي أن يبين قدرة المرثي عند مماته وعدم ضعفه، فهو كان مقتدراً ينفع الناس، يحفظهم من البلايا ويدفع عنهم الشرّ، فأحضر صورة بردٍ لم يبل، كناية عن ستره للناس وصورة سيف حاد قاطع لم يفلل حدّه إشارة إلى دفاعه عن الناس ودفعه الشر عنهم، ولكن هذا البرد يطوي والسيف يخفى في غمده،وإن كان لايزال صالحاً للعمل. وقوله:

جَزَرُوا جَزْرَ الأَضَاحِي نَسْلَهُ ثُمَّ سَاقُوا أَهْلَهُ سَوْقَ الإِمَا[٢]

وكذلك:

كَمْ رِقَابٍ مِنْ بَنِي فَاطِمَةٍ عُرِقَتْ مابينَهُمْ عَرْقَ المِدَى[٣]

فالصورة في رثاء الشاعر للإمام الحسين (ع) حيث يصوّر القساوة والخشونة التي ألحقها الأعداء بأهل بيت الرسول ونسله، فذبحوا الإمام وأولاده وأصحابه مثلما يقوم الإنسان بذبح القربان، ثم أخذوا النساء كالإماء، فضربوهنّ بالجلد، فدفعوهن بذلك و هنّ من أبناء فاطمة (س) وأولادها.كما يصوّر في الصورة الثانية أيضاً طريقة قتلهم ليجعل الصورة قريباً من ذهنيّة المتلقي.

تناسب مفردات التشبيه مع الهدف لدى الرضي

إن الألفاظ التي يستخدمها الرضي للتعبير عمّا يريد وللكشف عن أحاسيسه تناسب تماماً الجو الحزين الغالب في الشعر، فإذا يشبّه المرثي بالقمة الرفيعة يجعلها تراباً وسافياً:

قُلَلٌ لِلْعَلَاءِ عَا دَتْ تُرَاباً وسَافِيَا[٤]

أو إذا كان المتوفى في قوته سيفاً، يفلّه الدهر:

مَضَرَبٌ مِنْ مَضَارِبِي فَلَّهُ الدَّهْـ ر، وَغُصْنٌ أُبِينَ مِنْ أغصَانِي[٥]

وصورة الغصن مما يتكرر كثيراً في شعر الرضي وهو يقارن بينه وبين المرثي من ذلك قوله:

---

[١] الشريف الرضي، **ديوان**، ١، ص٦٣٢

[٢] المصدر نفسه، ج١، ص٩٥

[٣] المصدر نفسه،ج١، ص٩٦

[٤] المصدر نفسه،ج٢، ص٤٩١

[٥] المصدر نفسه،ج٢، ص٣٩٣

ذَوَى كَمَا يَذْبُلُ القَضِيبُ، وكَمْ مَأمُولُ قَوْمٍ يَصِيرُ مَنْدُوبَا[١]

أو قوله:

لا يُبْعِدِ اللهُ فِتْيَاناً رُزِئْتُهُمُ رُزْءَ الغُصُونِ، وفِيهَا المَاءُ والوَرَقُ[٢]

فيتوجّع الرضي فيها لفقد الذين ماتوا في شرخة شبابهم، وهم بدوا في نسيج الصورة التشبيهية غصوناً طرية جميلة دلالة على حداثه سنّهم ومنحت الغصون للصورة دلالات النضارة والجمال وطبعت الصورة بالطابع البصري من خلال اللون الأخضر غير الصريح الذي هو من لوازم الغصون الخضراء. ولا شك أن القاريء يلمس الحزن ويحسّ الألم عند قراءة هذه الأبيات.

تصوير المصابين

عندما يصور الرضي حالة المصابين وأهل المرثي من انفعالاتهم النفسية، وإقامة حدادهم له، أو بكائهم عليه، يرسم لوحات جميلة دقيقة مستخدماً الصورة التشبيهية،كقوله:

وَزَالَتْ لَهُ الأَقْدَامُ عَنْ مُستَقَرِّها كَمَا مَالَ لِلبَرْكِ المَطِيُّ اللّوَاغِبُ[٣]

فأخذ صورة مما يراه في واقعه المحسوس ليرسم حالتهم في الاضطراب وعدم القرار، فيلفت انتباهه لوحة النياق التي أعياها التعب وهي لا تستطيع القيام على أرجلها، فمالت للإناخة والحلّ في الأرض، فإنّ أقرباء المرثي فقدوا قوّتهم وقرارهم إثر حادث الموت. أو يصوّر صبرهم في إطار التشبيه الضمني[٤]:

تَسَلَّوا، ولَولا اليأسُ مَا كُنْتُ سَالِياً وقَدْ يَصْبِرُ العَطْشانُ والوِرْدُ نَاضِبُ[٥]

---

[١] المصدر نفسه، ج١، ص١٩٩

[٢] المصدر نفسه، ج٢، ص٦٧

[٣] المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٧

١) وهو تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب ويؤتي به ليفيد أن الحكم الذي أُسند إلى المشبه ممكن. ويأتي الشاعر به ليتفنن في أساليب التعبير، و يترع إلى الابتكار والتجديد، و إقامة البرهان على الحكم المراد إسناده إلى المشبه، والرغبة في إخفاء معالم التشبيه، لأنّه كلما خفى ودقّ كان أبلغ في النفس. (عبدالعزيز عتيق، **علم البيان**، ص ١٠٢)

[٥] الشريف الرضى، **ديوان**،ج١، ص٢٠٨

فقوم المرثي هدأوا ونسوا الحزن والأسى بعد انقضاء فترة من الموت، والشاعر أيضاً خفّف حزنه لوجود اليأس ولاغرو في ذلك، لأنّ الإنسان العطشان يصبر عندما يرى مورد الماء ناضباً، فنحن إذا يئسنا من رجوعه، هدأنا. فالشاعر يشبه حاله وحال قومه بحال العطشان عند نضب مورد الماء و لم يصرّح بالتشبيه، بل أورده في جملة مستقلة.

وقوله في تصوير حالة الناس:

أَرَى النّاسَ بَعْدَكَ في حَيَرةٍ فَذُو لُبِّهِمْ حَاضِرٌ غَائِبُ
كَمَا إختَبَطَ الرّكْبُ جِنْحَ الظَّلَامِ وَقَدْ غَوَّرَ القَمَرُ الغَارِبُ[1]

فهو عندما رحل عن الديار، أصبح الناس حيارى، فقدوا قائدهم كركبٍ يسير في الليل الحالك، و قد غاب القمر الذي يستضيء الركاب بنوره لمواصلة الطريق.

وقد تتداخل الصور البيانية لبيان غرض الشاعر، كقول الرضي يرسم أثر الحادث على قلوب المصابين:

وُرُزْءٌ رَمَى بَينَ القُلُوبِ شُوَاظَهُ أجِيجُ المَصَالِي أسْعَرَتْهَا المَحَارِثُ[2]

فها هي الصورة الاستعارية المكنية تجسم «الرزء» ناراً تلقي بلهيبها في القلوب فتحرقها. ثم يأتي بالصورة التشبيهية ليجعل صورة القلب وتحرّقه من المصيبة ملموساً محسوساً للمتلقي. فيرسم لوحة استقى عناصرها من الواقع، يصور موضع احتراق النار يرتفع اللهب منه والتي تزيدها حركة المحراث، فالقلوب تشتعل من هذا المصاب.

أو يصوّر حال قومه كشجرة ذات أغصان وأوراق طرية خضراء، ولكنّها تخلت اليوم من أوراقها النضرة :

مَضَوْا، فَكأَنَّ الحَيَّ فَرْعُ أَرَاكَةٍ على إثْرِهِمْ عُرّي مِنَ الوَرَقِ النَّضْرِ[3]

---

[1] المصدر نفسه،١، ص٢٠٣

[2] المصدر نفسه، ١، ص٢٩٤

[3] المصدر نفسه، ١، ص٥٣٢

تصوير حالته النفسية

إنّ صور الرضي التشبيهية تدل على أنّه كثيراً ما يستعين بها لتصوير حالته النفسية إزاء حادث الموت وشدة المصاب النازل عليه. ولعل السبب يرجع إلى ذاته الحساسة التي تتأثر بكل ما يحدث حوله فيفقد إثره صديقاً أو أهلاً قريباً أو بعيداً، فيسبغ مشاعره كلها في شعره ليخفّف من آلامه، فلذلك إن شعر الرضي مرآة صافية إنعكست فيها نفسه وما تختلج فيها. وقلبه إما يلتاع من الفجيعة فيرسم صورة مشتعلة منه قوله:

وَإنّي إنْ أنْضَحْ جَوَايَ بِعَبْرةٍ يَكُنْ كَخَبِيِّ النّارِ يُقدَحُ بالزَّنْدِ[١]

فالدموع والعبرات التي يسفحها الشاعر تزيد من حزنه وآلامه، وهي كالنار التي خمد لهيبها فتشتعل بالعود،وهو الزناد فالبكاء كهذا العود الذي تقدح به نار قلبه. وكذلك قوله:

مَا لِلهُمُومِ كَأَنَّهَا نَارٌ عَلَى قَلْبِي تُشَبُّ
وَالدّمعُ لايَرْقَا لَهُ غَرْبٌ كَأَنَّ العَيْنَ غَرْبُ[٢]

وهكذا نرى أنّ الرضي استعان بالصور التشبيهية للتعبير عن المشاعر التي تنطوى عليها نفسه وتؤلمه. فالهموم التي حلّت بقلبه وهو يكابدها كنارٍ اشتعلت في أحشائه فأحرقتها. وكذلك دموعه الجارية من عيونه فهى لا تنقطع أبداً، لأن العروق التي تفيض بالدمع كدلوٍ عظيمة ممتلئة بالماء لايكاء ينفد ماؤها. أو يصوّر إضطراب قلبه وهو عندئذ يرصد الحركة ويعتمد على الوصف الحركي في التصوير التشبيهي وهو كقوله:

عُرَاعِرُ يَنْزُو القَلبُ عِندَ ادّكَارِهِمْ نِزَاءَ الدَّبَى بالأَمْعَزِ المُتَوَقِّدِ[٣]

استخدم الرضي عناصر مركبة من واقعه المحسوس لتصويرحالة قلبه المضطرب، فيرسم صورة صغار الجراد التي تثب في مكان صلب مشتعل لشدة حرارة الأرض. فهو عندما يذكر أحبائه الماضين ينبض

[١] المصدر نفسه،ج١، ص٤٢١
[٢] المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٨
[٣] المصدر نفسه:ج١، ص٤١٧

قلبه ويضطرب لشدّة تحرّق جسمه الذي يشتعل عند ذكرهم ويتحرّك قلبه في هذا الجسم الملتاع. وكقوله يرسم صورة أخرى:

إنّي أرَىَ القَلْـبَ يَنْزُو لادّكَـارِهِمُ نَزُوَّ القَطَاطَـةِ مَـدّوا فَوْقَها الشـَّرَكَا[١]

أنظر هذه اللوحة الجميلة من الطبيعة التي يرسمها الرضي أمام عينيك ليبيّن قلقه وإضطرابه النفسي عند ذكر المرثي. فجماعة من الطيور أمسكها الصياد بالفخ، تتحرك لتخلص نفسها من المصيدة. فإنّ شدّة حركة الطيور في الفخّ تصوّر اضطراب قلب الشاعر. ولا شكّ أنّ التشبيه هنا ليس بزينة فحسب، بل إنّه ساعد الشاعر في الكشف عن أحاسيسه وجعل كلامه أكثر وضوحاً للمخاطب. وعندما يريد الرضي أن يصوّر طول مدة أنّاته على البلاء، يقارن بين نفسه والإنسان الذي لدغته الحيّة، فيتناوب علىه الألم ويغشى جسمه مرة بعد أخرى؛ كقوله:

مَا عُـــدْتَ إلا عـــَادَ قَلْبِي غُلَّـةٌ حَـرَّى، وَلَوْ بَالَغْتُ في إبْرادِهـَا
مِثْلُ السّـــلِيمِ مَضِيـضَةٌ آنـــَاؤُهُ خـُزْرُ العُـيُونِ تَعُودُه بِعِدادِهَـا[٢]

أو قوله:

وإذَا أعَادَ الحَوْلُ يَوْمَـكَ عَادَنـــي مِثْـلُ السَّـلِيمِ يَـعُودُهُ آنَـــاؤُهُ[٣]

وأيضاً:

أُعَاوِدُ مِنْـــكَ عـِدادَ السَّـــلِيمِ فَيـَا دِيـــنَ قَلْـــبِي مَاذَا يُدَانُ[٤]

فيعود إليه ما كان له من الآلآم والهموم، عندما يصل إلى يوم رحيل المرثي كلديغٍ يؤلمه ويؤجعه ثمّ يتركه لمدة وعندما يرجع إليه الألم يغطي جسمه. ومن أجمل تشبيهات الرضي التي اتّخذ عناصرها من واقعه المحسوس ليرسم شدة الألم الذي يحمله من جراء المصاب قوله:

يَبِيـــــتُ بَعْـــدَكِ في مضْـــ ـــجـــَعِي الجَوَى والكـــــَرْبُ

---

[١] المصدر نفسه: ج٢، ص٩٣
[٢] المصدر نفسه: ج١، ص٨٢
[٣] المصدر نفسه: ج١، ص٨٢
[٤] المصدر نفسه: ج٢، ص٤٠٤

كَـــمَا يَبِيـــتُ رَمِيـــضٌ بَعْـــدَ السّنَـــامِ الأَجَـــبُّ
أَنّـــى عَلَى قَضـــضِ الهَـــ ـــمِّ يَطْمَـــئِـــنُّ الجَنْـــبُ[١]

فليس هناك من ينكر جمالية التشبيهات التي استخدمها الرضي للإفصاح عن وجدانه والأحاسيس التي يعانيها. فالهموم والأحزان تصير جليسه الدائمي بعد موت صديقه تؤلمه بشدّة، وتسلب منه نومه وقراره. ثمّ يستمسك الرضي بصورة مما يراه الشاعر العربي في بيئته الصحراوية، وهي صورة البعير الذي قطع سنامه وهو يسير في الصحاري تحت أشعة الشمس فيؤلمه الحرّ الحارق. وهذه الصورة تتذكّر حالة الشاعر الذي يتحمّل ألماً شديداً من حرّاء المصاب. وما يجعل الصورة ملموسة لنا ويفصح عن مدى الأسى النازل على قلب الشاعر، هو التشبيه الذي استخدمه الرضي في صورة أخرى، فشبّه بالحصى المتكسرة التي انتشرت في منامه وجعلت النوم مستحيلاً عليه، وهي تهجم عليه في الليالي، تؤرقه ولا تسمح له الراحة.

ومن تشبيهاته التي نلمس فيها الحزن والألم أيضاً: (الحزن ــ السهل، الصبر ــ الوعر[٢]) (الجنان ــ فرى أديم[٣])، (ذكره ــ ذكر العاطشات عند ورود الماء[٤])، (القلب ــ الصخرة[٥])، (العين ــ أرض لا تنشف الماء فيها[٦])، (طراق الهموم ــ محافل الحي[٧])

تصوير الموت

يستخدم الشريف الرضي التصوير التشبيهي لتصوير الموت وما يفعل بالإنسان، فيأتي بعناصر حسية من الطبيعة، أو الواقع المحسوس ليقارن بينها وبين الموت الذي هو من العناصر المعنوية؛كقوله شبه الموت بالسيل الذي يجري بين الشعاب وهو يموج:

---

[١] المصدر نفسه: ج١، ص٢٢٩
[٢] ورأَيْنَا مُعَـــرَّس الحُزْنِ سَهْـــلاً في الرّزايَا وجَانِبَ الصّبْرِ وَعْرَا(١، ص٥٢٦)
[٣] كأنّ جَنَانِي يَـــوْمَ وافَى نَعِيُّـــهُ فَرِيُّ أَدِيمٍ بَيْنَ أيدي الخَـــوالِقِ(٢، ص٦٠)
[٤] ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ العَاطِشَاتِ وُرُودَهـــا تُحَرَّقُ أَكْبَادٌ لَهَا وضُلُـــوعُ(١، ص٦٣٣)
[٥] ولَوْ أنّ قَلْبِي بَعْدَ يَوْمِكَ صَخـــرَةٌ لَبَانَ بِهَا وَجْدَاً عَلَيْكَ صُدُوعٌ(١، ص٦٣٣)
[٦] وَعَيْنِي لِرَقْرَاقِ الدُّمُوعِ وَقِيعَة لَهَا اليَوْمَ مِنْ عَاصِي الشّؤُونِ مُطِيعُ(١، ص٦٣١)
[٧] أبيتُ وطُرّاقُ الهُمـــــومِ كأنّهَا مَحَافِلُ حَيّ تَنْتَجِي وَجُمـــوعُ(١، ص٦٣١)

وَاسْتَــــــدْرَجَ العَبـــيدَ والأَرْبـــابَا سَيْـلُ رَدَىً قَدْ مَـــلَأَ الشِعَـــابَا
وَجـــنَّ مَـــوْجَاً، وطَـغَى عُبَـــابَا قَـارَعَـنَـا وانْتَـزَعَ اللُـبـَابَـا[1]

والسيل الذي يرسمه الرضي ذو أمواج مضطربة كأنها مجنونة، تسيل بقوة وتغلب على المرتفعات، والموت يمشى بين الناس كسيلٍ عارم يغلب على الصغار والكبار من القوم.وكأنه قام بالقتال معهم. والرضي ينقل المعنى المقصود إلى المخاطب مستعيناً بالصورة الاستعارية والتشبيهية أو يجعله كمورد ماءٍ يدخل عليه الجميع للشرب:

ألاَ إنَّ قَوْمِـــي لِـــوِرْدِ الحِـمَامِ مَضَوْا أُمَمَاً، وأجَابُوا المُهِيبَـــا[2]

فيتحسّر على قومه الذين ماتوا وانصرفوا عنه، وكذلك قول الرضي يرسم قوّة الموت وسلطانه على الناس:

ثُمَّ انْثَنَـتْ كَفُّ المَنُـونِ بِـهِ كالضّـغْثِ بَيْنَ النَّـابِ والظُّفْـرِ[3]

فيظهر سلطان الموت عليهم وملامحه المخيفة في إطار الصورة الاستعارية والتشبيهية، فيجسّم الموت وحشاً مركزاً على الكف والناب والظفر، وأراد من خلالها أن يبرز بشاعة هذا الوحش (الموت) وقوة فتكه على الصيد (صديقه). فهو يغلب على الصيد ويأخذه كقبضة من الحشيش التي جمعها بكفّه. وذلك يعني أنّ الإنسان لا قوّة له أمام الموت.

وقوله استقى الرضي عناصره من التراث الديني:

صَـدْعُ الرَّدَى أعْـــيَا تَلَاحُمَـــهُ مَـنْ ألْحَمَ الصَّـدَفَيْنِ بالقِطْـــرِ[4]

فشبه الموت بالشقّ الذي لايستطيع أحد أن يلاءم بينه ولو كان ذلك الشخص الإسكندر ذا القرنين الذي تلائم بين الغلافين بالنحاس، فهو أيضاً لايستطيع أن يلاءم شقّ الموت. وفي هذا إشارة إلى ما جاء في القرآن الكريم ﴿اُتُونِى زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قال أنفُخُوا حَتَّى إذا جَعَلَهُ ناراً

[1] المصدر نفسه،ج١، ص٢٢١
[2] المصدر نفسه،ج١، ص٢٣٢
[3] المصدر نفسه،ج١، ص٥٢٣
[4] المصدر نفسه،ج١، ص٥٢٣

قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾[١].

تصوير الأيام ومصائبها

ظهرت الأيام في شعر الرضي ذات وجه كريه، يشبهه مرّة بالوحوش التي تهجم على الإنسان وتحبط آماله:

عَزَاءَكَ، فالأيّـــامُ أُسْدٌ مـــُذِلّـــةٌ تَعُطُّ الفَتـــَى عَطَّ المَقَارِيضِ لِلْبُرْدِ[٢]

فيجمع خيال الشاعر بين الأيام والأسد في نسيج الصورة التشبيهية، وبذلك أبرز وحشية الأيام ويضفي عليه إيحاءات الأسد المرعبة والبشعة المقترنة بالوحشية التي يفترس الإنسان. ثم يستعين الرضي بصورة أخرى ليلمس المتلقي ما تفعل الأيام بالانسان، فيرسم لوحة مقراض يشق الثوب. فالدهر يشقّ الإنسان، يقطع جسمه ويفرّق آماله.

وقوله أيضاً :

وَلا دَارَ إلّا سَـــوْفَ يُجْـــــلَى قَطِينُها عَلَى نَعْقِ غِرْبَانِ الخُطُـــــوبِ النَّواعِقِ
وَيَخْرُجُ مِنْـــهَا بِالكَرَائِمِ حَادِثٌ وَيَدخُلُها صَرْفُ الرَّدَى بِالبَوَائِقِ[٣]

استعان الشاعر بحاسة الصوت واللون في صورته التشبيهية لبيان شدة كراهية المصائب وتشاؤمه بها، فهي سوداء ولها صوت كريه كصوت الغراب الذي يتشاءم به عندالعرب. فالحوادث السوداء تخرج شرفاء القوم من الديار وتدخل فيها الشر والمصيبة. فأراد الشاعر بهذا أن يبيّن أنّ الموت حتمي وهو مصير كل إنسان، فكل ديار يخلو من أهلها إثر مصيبة نازلة أو حادثة مفجعة. ومما نستنتج أنّه:

[١] الكهف، ص٩٦

[٢] الشريف الرضي،**ديوان**، ج١، ص٤٢٣

[٣] المصدر نفسه، ج٢، ص٥٨

النتيجة:

- استعان الرضي بأنواع التشبيه لتصوير الأفكار والأحاسيس و...، ولكن التشبيه التمثيلي يغلب على غيره من الأنواع.

- يصوّر الرضي المعنوي في صورة المحسوس في مواضع عديدة من شعره، وذلك ليقربه إلى ذهن المتلقي.

- إنّ توسل الرضي بحواس الصوت واللون، يشكّل جانباً بارزاً في جوانب رسم الصورة التشبيهية.

- المادّي المحسوس هو العنصر البارز في التشبيه عندالرضي.

- استمدّ الرضي أكثر صوره التشبيهية من مظاهر الطبيعة والواقع المحسوس، وقد نجد بعض صوره استقاها منالتراث الديني، ولكنه يندر أن يشكّل تشبيهاته منالوهم.

- إن المفردات التي يستخدمها الرضي تناسب تماماً مع الجوّ الحزين السائد في أشعاره الرثائية. فالرثاء يقتضي استعمال مفردات مثل «غاض»، «فلّ»، «ذهب»، «فقد»، «غاب»، «ذبل»، «ذوي»، «نشف» وغيرذلك.

- ينوّع الرضي في استعمال أدوات التشبيه، وذلك لأن وظيفة الأدوات تختلف.

قائمة المصادر والمراجع:

١-ابراهيم أبوزيد، على، **الصورة الفنية فى شعر دعبل بن على الخزاعى**،(د.ط)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م.

٢-إبن الأثير أبوالفتح ضياء الدين، **المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر**،(د.ط)، تحق محمد محى الدين عبد الحميد،بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٠ هـ_ ١٩٩٩م.

٣-ابن طباطبا العلوى، على بن احمد، **عيار الشعر**،(د.ط)، تحق محمدزغلول سلام، القاهرة:منشأة المعارف بالإسكندرية، (د.ت).

٤-إسماعيل، عزالدين، **الشعر العربى المعاصر**،الطبعة الخامسة، بيروت: دار العودة، ١٩٨٨ م.

٥-الأمين، محسن، **أعيان الشيعة**،(د.ط)، تحق حسن الأمين، د.م: دار التعارف، ١٩٨٣م.

٦-الباخرزي، على بن حسن، **دمية القصر وعصرة أهل العصر**،الطبعة الأولى، تحق محمد التونجي، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣.

٧-البستانى، صبحى، **الصورة الشعرية فى الكتابة الفنيّة** (الاصول والفروع)، الطبعة الأولى،بيروت: دار الفكر اللبنانى، ١٩٨٦م

٨-الراغب، عبد السلام أحمد،**وظيفة الصورة الفنية فى القرآن الكريم**، الطبعة الأولى، حلب: فصّلت للدراسات والترجمة والنشر، ١٤٢٢هـ_٢٠٠١م.

٩-الشريف الرضي، **ديوان**:شرح محمود مصطفي حلاوي، الطبعة الأولى، بيروت :شركة دار الأرقم بن أبى الأرقم، ١٤١٩هـ_١٩٩٩م.

١٠-ضيف، شوقى، **تاريخ الأدب العربى**(عصر الدول والامارات)،(د.ط)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥م.

١١--------، **الفن ومذاهبه فى الشعر العربى**،(ط١٢)، مصر: دار المعارف، د.ت.

١٢-عبدالله الهرّامة، عبد الحميد، **القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجرى** (الظواهر والقضايا والأبنية)،(ط٢)،طرابلس:دار الكاتب، ١٩٩٩ م.

١٣-عبد المحسن محمد، فتحى، **الشعر فى مصر فى ظلّ الدولتين الطولونية والإخشيدية**، (د.ط)، القاهرة: مكتبة الآداب،١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

١٤-عتيق، عبد العزيز، **علم البيان**، (د.ط)، بيروت:دار النهضة،١٤٠٥هـ_١٩٨٥م.

١٥-العسكرى، ابوهلال، **الصناعتين**، على محمد البجاوى،الطبعة الثانية، محمد ابوالفضل ابراهيم، مطبعة عيسي البابى الحلبى وشركاه،(د.ت).

١٦-عصفور، جابر، **الصورة الفنيّة فى التراث النقدى والبلاغى**، (د.ط)، القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٤م.

١٧-عمران، عبداللطيف، **شعر الشريف الرضى ومنطلقاته الفكرية**، الطبعة الأولى، دمشق: دار الينابيع، ٢٠٠٠م.

١٨-فضل، صلاح، **نظرية البنائية فى النقد الادبى**، الطبعة الأولى، القاهرة:دار الشروق، ١٤١٩هـ_١٩٩٨م.

١٩-مطلوب، أحمد، **فنون بلاغية**، البيان،البديع، (د.ط)، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٣٩٥ هـ،١٩٧٥م.